# الوسيلة تبقى وسيلة

ديفيد بروكس

صحيفة نيويورك تايمز

9 يوليو 2010

# The Medium Is the Medium

*By* David Brooks

The New York Times *Newspaper*

ترجمة: علي الحارس (alharis.a@gmail.com)

ديفيد بروكس

- من كتاب (مقالات الأعمدة) في صحيفة (نيويورك تايمز) منذ عام 2003.
- عمل محررا في مجلة (ويكلي ستاندارد) منذ انطلاقها.
- كان من كتاب (مقالات الأعمدة) في صحيفة (وول ستريت جورنال).
- عمل محررا مشاركا في مجلتي (نيوزويك) و(اتلانتيك مونثلي).
- عمل محللا في إذاعة (NPR).
- عمل أستاذا للسياسة العامة في جامعة دوك.
- إجازة في التاريخ، جامعة شيكاغو.

تناهت إلى أسماع ناشري الكتب في الآونة الأخيرة أنباء سعيدة إثر نتائج تمخضت عنها إحدى التجارب الأكاديمية في مجال الكتب. وتضمنت هذه التجربة إعطاء (852) طالبا معوزا (12) كتابا يختارونها بأنفسهم ليأخذوها معهم إلى بيوتهم عند نهاية السنة الدراسية، وتم تكرار ذلك طيلة ثلاثة أعوام متتالية. قام الباحثون، يقودهم ريتشارد ألينغتون (Richard Allington) من جامعة تينيسي، بدراسة نتائج هؤلاء الطلاب بعدها، ووجدوا أن هؤلاء الطلاب أحرزوا نتائج أفضل من غيرهم في مادة القراءة، وذلك لأنهم لم يتأثروا بظاهرة «الانزلاق الصيفي»، أي: تراجع المستوى الدراسي الذي يصاب به على الأخص الطلاب المنتمون إلى طبقة الدخل المنخفض خلال أشهر العطلة الصيفية. وفي الواقع، كان تأثير هذه الكتب الاثني عشر إيجابيا يماثل تأثير ارتياد المدرسة الصيفية.

إن هذه الدراسة، بالإضافة إلى غيرها من الدراسات، ترسم لنا صورة للقوة الهائلة التي تتمتع بها الكتب؛ كما إننا نعلم من دراسة تضمنت (27) دولة أن الأطفال الذين ينشؤون في منزل يحوي (500) كتاب يستمرون أكثر من غيرهم في الدراسة ويحرزون نتائج أفضل، أضف

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

## الوسيلة تبقى وسيلة

إلى ذلك ما جاءت به الدراسة السابق ذكرها من أن إحضار الكتب إلى منزل يخلو منها يؤدي إلى مكاسب كبيرة على المستوى التعليمي.

وبخلاف ذلك تلقى مختصو الانترنت أخبارا سيئة جاءتهم من تجربة قام بها جاكوب فيغدور (Jacob Vigdor) وهيلين لاد (Helen Ladd) من كلية سانفورد للسياسة العمومية في جامعة دوك. وتضمنت التجربة دراسة لاستخدام الكومبيوتر لدى نصف مليون طالب يتوزعون بين الصفين الخامس والثامن في ولاية جنوب كارولينا. وخلصت الدراسة إلى أن الكومبيوتر المنزلي وخدمات الانترنت السريع ترافقت مع هبوط كبير في درجات الطلاب في مادتي الرياضيات والقراءة, ووجدت الدراسة. كما وجدت غيرها من قبل. أن خدمة الانترنت السريعة (برودباند) ليست أمرا جيدا بالضرورة للطفل. بل إنها قد تلحق الضرر بمستواه التعليمي. ويجب الانتباه هنا إلى أن هذه الدراسة جمعت بياناتها في المدة (2000-2005) قبل رواج موقعي تويتر وفيسبوك.

تصب هاتان الدراستان في مصلحة نقاش اندلع إثر صدور كتاب «السطحيون» للكاتب نيكولاس كار (Nicholas Carr). وفيه يرى المؤلف أن الانترنت يؤدي إلى ثقافة (الانتباه القصير الأمد). ويرجع إلى الكثير من الدراسات التي يستنتج منها أن عالم رابط الانترنيت (الهايبرلينك) التشتيتي يضعف قدرة الناس على ممارسة التفكير العميق أو التأمل الجاد.

لم تسلم طروحات كار من النقد. حيث أشار منتقدوه إلى وجود أدلة تشير إلى أن ممارسة ألعاب الكومبيوتر والبحث في الانترنت يؤديان حقا إلى تحسين قدرة المرء على معالجة المعلومات وتشد الانتباه. وهم يرون أن الانترنيت يساعد العملية التعليمية. ولا يشكل خطرا عليها.

هنالك ملاحظة مهمة أبدتها إحدى المحسنات اللواتي يهبن الكتب إلى الأطفال المعوزين. وهي أن الوجود المادي للكتب لم يكن هو المتسبب بالأثر الأكبر. وإنما كان ذلك

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

## الوسيلة تبقى وسيلة

نتيجة للطريقة التي أصبح بها هؤلاء الطلاب ينظرون إلى أنفسهم بها بسبب تشييدهم للمكتبة المنزلية، وهي أنهم (قرّاء)، أي: ينتمون إلى مجموعة مختلفة من الناس.

إن النقاش حول التفاضل ما بين الكتاب والانترنت يجري على افتراض مفاده أن (الوسيلة) هي (غاية)، ولكن (الوسيلة) ليست إلا (وسيلة) في بعض الأحيان، وما يهم هو كيفية تفكير الناس بأنفسهم عندما يمارسون كلا من هذين النشاطين؛ فمن يصبح مواطنا في جمهورية الأدب ينخرط في عالم هرمي تتبوأ أعلاه الكتب الأدبية التقليدية وتنزل أسفله الكتب العادية التي تُقرأ أثناء الاستجمام. حيث يدخل المرء عالم الأدب كمستجد، ثم يتدرج في دراسته لأعمال الكتاب والعلماء العظماء، حتى يجد القارئ نفسه منغمسا في عوالم عميقة وبديلة بحثا عن حكمة تبقى لديه، وينال الاحترام أولئك الكتاب الذين بثوا تلك الحكمة.

أما من يدخل عالم الانترنت فيخوض تجربة شديدة الاختلاف عن تجربة القراءة؛ فالانترنت لا يلتزم بالهرمية ولا يؤمن بالاختلاف، وربما كان الأمر مختلفا لو تم اختراع الانترنت في انكلترا إبان العصر الفيكتوري، ولكنه ولد في أمريكا المعاصرة، وتتصف ثقافة الانترنت بأنها ثقافة مساواة، وأن الصغير يتفوق فيها على الكبير.

من المفترض أن تكون (الوسيلة) الجديدة أكثر دهاء من سابقاتها، لكننا نجد أن المهيمن على الساحة هي فعاليات الانفلات والاحتقار والجدال الذي لا يستند إلى أية شرعية.

www.iraqfuture.net© كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل